

المقدمة

الحمد لله الذي أعطى من رفع قدره بالعلم مكاناً علياً ، وشرّفه باللغة العربية وكان
لفصيح الكلام كُفواً ولنا ، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد - صلى الله عليه وسلم - الذي
خصّه ربه بجوامع كلمه واتّخذهُ صديقاً ، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فقد خرجتُ من بعض قراءاتي في مجال العربية وقنونها - في مرحلة الماجستير - بانطباع
أثار دهشتي واستأثار شفقتي وغيرتي ؛ إذ وقفتُ على عالم مُحقق مدقق ، لا يقل عن أشهر
النحاة تمكناً ورسوخاً قدم في مجال لغتنا العربية وآدابها - تأليفاً وشرحاً - قد غمطَ حقه ،
وأهمِلَ ذكره ، فلم يحظَ من جانب من أتوا بعده من المؤلفين والمعنيين بكتابة السير والتراجم إلا
بأسطر قليلة لا تكاد تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، بالرغم مما قدّمه للغة الضاد من آياتٍ بيض
وما أسهم به في إثراء المكتبة العربية من مصنفات خطية ظلت حبيسة جدران دور الكتب
وانكبات قرابة ثمانية قرون ، ألا وهو عالم أستراياذ الكبير ركن الدين الأستراياذي ، النحوي
اللغوي ، الأديب ، حسنة طبرستان وأوحد ذلك الزمان ، على حدّ تعبير ياقوت الحموي -
رحمه الله .

ولإزاء هذا الانطباع الذي خرجتُ به من قراءاتي وإطلاعي آلتُ على نفسي أن أعمل
جاهداً على إخراج دراسة مستوعبة وبمبحث مستفيض أردُّ فيه للرجل حقه المسلوب ، وأوفيه

قدرة بشيء من إنصاف والعدل، ولأسيما أنني كنت بصدد إعداد رسالة أتقدم بها كلية دار العلوم - جامعة القاهرة لنيل درجة الدكتوراه في النحو والتصريف فوجدت الفرصة سانحة والموضوع يلح علي لتناوله، فاستخرت الله العليّ القدير في أن أجعل من ركن الدين موضوعاً لرسالتي، ومن جهوده النحوية والصرفية محوراً يدور حوله بحثي ودراستي. وقد أتيت أن أشغف دراستي هذه بإخراج واحد من أهم كتبه إلى دائرة الضوء، إتماماً للفائدة من جانب وإبرازاً لجهوده في الميدان الصرفي من جانب آخر، ليكون موضوع الرسالة: « ركن الدين الحسن الأسترا باذي وجهوده النحوية والصرفية، مع تحقيق كتابه شرح شافية ابن الحاجب ».

وما إن أخذت الأهبة وشحذت الهمة لإعداد هذه الدراسة حتى تفتحت أمامي - بحمد الله وتوفيقه - مغاليق الأبواب وألقيت بين يدي مفاتيح الأسباب، وكأن عالمنا ركن الدين كان كنزاً مرصوداً، قصرت همم المؤلفين والباحثين دون الوصول إلى حل (طلاسمه) وفك (تعاويذه) حتى جاء دوري فانفتح أمامي الكنز - بحمد الله - لأنصب من نفسي حارساً عليه، مشيداً بذكره، واضعاً إياه في دائرة الضوء ليحلل مكانه بين علماء العربية الذين ترعوا على عرش الشهرة والمجد.

وفي سبيل إخراج هذه الدراسة على الوجه الذي رسمه لها منذ الشروع فيها آلت على نفسي الأذخر وسعاً في جمع ما تفرق من خير ركن الدين ونشأته وحياته وأبذل قصارى جهدي

لإمارة اللثام عما قدّمه في سبيل خدمة اللغة العربية بصفة عامه وادرسات النحوية والصرفية بصفة خاصة من جهود صادقة ربما تنكبه في هذا الصدد من مشاق تشهدُ بها مؤلفاته ومصنّفاتُه .

وكتقد جعلتُ رسالتِي هذه في قسمين رئيسيين :-

القسم الأول جعلته خاصاً بركن الدين وجهوده النحوية والصرفية وقسمته إلى خمسة فصول تناولت في الفصل الأول عصره وحياته العلمية . وفيه أقيمت الضوء على الحالة السياسية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية والدينية في عصره . وبعد ذلك انتقلت إلى المُرجِم له ؛ حيث سُقَّت ترجمةٌ ضافيةٌ له تناولت فيها اسمه ولقبه وكبته ومولده ، ونشأته ، وحياته ، وموطنه ، وتنقلاته ، ومكانته العلمية والثقافية ، ومذهبه الفقهي ، وشيوخه وتلاميذه ، ثم انتقلت إلى آثاره وبينت الموجود منها وأشرت إلى المفقود ، وأفردت حديثاً لآثاره النحوية والصرفية التي وصلت إلينا .

وفي الفصل الثاني تحدّثت عن منهجه في معالجة قضاياها النحوية .

وفي الفصل الثالث تحدّثت عن مذهبه النحوي ، وأثبتُّ - بما لا يدع مجالاً للشك - أن

الرجل بصريّ المذهب في النحو .

وفي الفصل الرابع تناولت بالحديث شواهد النحوية على اختلاف أنواعها ، وأوضحت

موقف الرجل من هذه الشواهد .

وأما الفصل الخامس وهو آخر فصول القسم الأول فجعلته خاصاً بإبراز جهوده في المجال الصرفي وذلك من خلال كتابه (شرح الشافية) .

والقسم الثاني خاصٌ بتحقيق الكتاب - وهو كتاب (شرح شافية ابن الحاجب) لركن الدين موضوع الدراسة .

وقد ارتأيت الآن - وأنا بصدد نشر الرسالة - أن أفصل بين قسميها جاعلاً كل قسم منهما في كتاب مستقل؛ الكتاب الأول وسمته بـ (ركن الدين الحسن الأستراياذمي وجهوده النحوية والتصريفية) . والكتاب الثاني جعلته خاصاً بتحقيق الكتاب ودراسته .

وها هو الكتاب الأول الخاص بعالم أستراياذ الكبير ركن الدين الأستراياذمي وجهوده

النحوية والتصريفية . وقد أجريت عليه بعض التعديلات في ترتيب الفصول وفي المادة العلمية .

أما عن منهج البحث في هذا الكتاب فقد بذلت فيه أقصى الطرق ليكون نموذجاً عالياً تمثل فيه المنهجية الحديثة بأجلى صورها ، ومن مظاهر هذه المنهجية :

- أولاً: المنهج التاريخي في تتبع الفكرة حسب التسلسل الزمني منذ نشأتها ثم في أطوارها المتلاحقة عبر القرون ، وقد طبقت هذا في كل ما يمكن التطبيق فيه ، وذلك مثل تحقيق اسم ركن الدين وما يتعلق به من الكنى والألقاب ، وتحقيق نسبه ، وتحقيق سنة ولادته ، وكذلك سنة وفاته ، وغير ذلك .

• ثانيًا: الاعتماد على آثار المترجم له في استخلاص مذاهبه منها ، وجعل الروايات التاريخية - إن وجدت - في المرتبة الثانية ، فما اتفق منها مع الآثار قبلناه وما اختلف معها - بعد البحث والتحري - رددناه .

• ثالثًا : توثيق الآثار بالطريقة المنهجية ، وتمثل في :

أ - البحث عن الخصائص الفكرية والتعبيرية ، واستخراجها من نفس الأثر المراد توثيقه على ضوء ما ثبت للمؤلف من هذه الخصائص ، فإن اتفقت مع الخصائص التي انتهى إليها البحث للشخص المترجم له كان ذلك توثيقاً أي توثيق ، وإن اختلفت عنها كان موضع شك إلى أن نعر على مرجع آخر من بين مظاهر التوثيق الأخرى

ب - البحث عن نصوص خارجية أُخِذَتْ من الكتاب نفسه ومقارنتها بما جاء فيه .

ت - تحقيق عنوان الكتاب ؛ فقد تختلف العناوين والأثر واحد .

ث - تحقيق النسخ الباقية منه ، ومقابلة بعضها ببعض - إن تعددت - والبحث

عما قد يوثقها من سماعات أو إجازات .

• رابعًا : تشخيص المترجم له تشخيصًا بمثله وأمانًا بشركا سويًا كما كان في حياته من

هدى وصالح ، أو مجنون وضلال . . كيفما كان ، في أخلاقه وصفاته ورحلاته

وعقيدته وهواه ، مع إبراز الخطوط الرئيسة في شخصيته ، كلما أمكن ذلك .

ولا يفوتني في هذه المقدمة أن أشير إلى نقطة مهمة، تتعلق بعالمنا ركن الدين؛ حيث يلبس الأمر على كثير من الناس فيظن أغلبهم أن ركن الدين ورضي الدين شخص واحد، معتمدين على أن كلامهما قد شرح مقدّمَي ابن الحاجب.

وأبادر فأقول: إن ركن الدين الأستراباذي ليس هو رضي الدين الأستراباذي، ولا يجمع بين العَلَمَيْنِ سوى نسبتهما إلى بلدهما "أستراباذ" من بلاد فارس وما وراء النهر، تلك البقعة العلمية الحافلة بالعلماء، والتي أخرجت خلقاً كثيرين من أهل العلم في كل عصر.

وبعد:

فها أنذا أقدم دراستي هذه عن عالمنا ركن الدين إلى كل من يهيمه البحث في اللغة العربية وعلومها، وأمل أن أكون قد وفقت في إخراجها على الوجه المرجو؛ فإن كنت قد وفقت فيما سعت إليه فذلك من توفيق الله عز شأنه وتجلت مشيئته، وإن كانت الأخرى فحسبي أني قد حاولت وكتبت صادق العزيمة.

وأختم كلمتي هذه بأن أضرع إلى الله العليّ القدير . . . داعياً أن يوفقنا للعمل لوجهه الكريم في كل ما هو خير للإسلام والمسلمين واللغة العربية التي هي لغة القرآن الكريم . . . إنه سميع مجيب .
وما توفيقى إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب .

د . عبد المقصود محمد عبد المقصود

الرياض: العاشر من شهر صفر ١٤٢٥هـ

التمهيد

عصر ركن الدين الأسترباذي

أ - الحالة السياسية في عصره:

شهد بداية القرن السابع الهجري مولد عالم جليل من علماء الدولة الإسلامية هو: ركن الدين الحسن بن أحمد الأسترباذي النحوي اللغوي الأديب . عاش في عصر⁽¹⁾ كان العالم الإسلامي آنذاك يموج بالفتن والفتائل والاضطرابات ويَعْمَةُ الخراب والدمار؛ حيث كان أكثره تحت سيطرة المغول سلالة جنكيز خان، حيث امتد سلطان هؤلاء المغول فيه من حدود الهند شرقاً إلى سوريا غرباً وسيطروا سيطرة كاملة، فيما عدا فترات قصيرة كانت السيادة المؤقتة في فارس والعراق للفرس والترك.

وكانت العراق وفارس في سلطة الدولة الأتخانية، وهي مَغُولِيَّةٌ، ثم صارت الأمور إلى الدولة التيمورية، وهي مغولية أيضاً، وتخلَّلَ ذلك فترات صارت الأمور فيها إلى دولتين فارسيتين (الجلابرية، والمظفربة)، وآخرين تركيتين هما (القراقيونية، والأقايونية). وكانت تركستان

I - يطلق على هذا العصر (العصر المغولي)، نظراً لسيطرة المغول آنذاك على معظم الممالك الإسلامية، ويُؤرِّخُ له بسقوط بغداد ١٠ على يد هولاكو سنة ٦٥٦ هـ، وحتى دخول العثمانيين مصر سنة ٩٢٣ هـ ويطلق عليه أيضاً (عصر سلاطين المماليك) نظراً لسيطرة المماليك على جزء كبير من العالم الإسلامي، وذلك من حدود سوريا شرقاً إلى حدود مصر غرباً بما في ذلك شبه الجزيرة العربية، ويُؤرِّخُ له من سنة ٦٤٦ هـ وحتى سنة ٩٢٣ هـ بدخول العثمانيين مصر أيضاً .

وأفغانستان في قبضة الشغطائية، ثم صارت الأمور إلى التيمورية، وكلتاها مغولية⁽¹⁾.

والذي حدث أن هؤلاء التتار⁽²⁾ قد زحفوا كالجراد بقيادة جنكيز خان على أواسط آسيا وغربها منذ عام ٦٠٦ هـ، فملكوا كثيراً من البلاد، وقتلوا ما لا يحصى من أهلها حتى بلغوا خراسان فاتزعوها من ملكها خوارزم شاه عام ٦١٧ هـ، بعد أن أفنوا عددًا كبيرًا من مسلميها ثم عبروا نهر جيحون، وقصدوا مدينة بلخ، وساروا إلى نيسابور فملكوها لضعف أهلها عن مقاومة هؤلاء التتار الكفرة المخربين، وأخرجوا أهلها إلى الصحراء فقتلواهم وسبوا نساءهم وخرّبوا المنازل، ثم سارت طائفة منهم إلى طوس ففعلوا بها كما فعلوا بغيرها وخرّبوها، ولم يسلم من شرهم وفسادهم شيء، كما قال المؤرخ ابن الأثير⁽³⁾.

1- ينظر: تاريخ آداب اللغة العربية: ١١٠/٣.

2- التتار أم وثنية جاهلة من الجنس المغولي الأصفر، منهم الياقوتية والجزيرية والسامورية. ومسألتهم الأولى الأطراف الشمالية لبلاد الصين، ومنذ الأزمنة السحيقة كانوا يعيشون عيشة البداوة، ويخضعون لأحد ملوك الصين، ثم نجم فيهم رجل قوي الشكيمة شديد البأس، استطاع أن يملك عليهم، وأن يفوز بعرش الحكم فيهم، ودانت له أم التتار جميعًا، و أخذ يقودهم من نصر إلى نصر، حتى خضع لحكمهم الأمم المجاورة، ذلك الرجل هو جنكيز خان. ومن صفات هؤلاء التتار الشجاعة وشدة البأس وحب البطش، وكان من أعظم ملوكهم بعد جنكيز خان حفيده هولاكو خان الذي نكبت بغداد على يديه سنة ٦٥٦ هـ، وتيمور لنگ الذي خرب بلاد الشام، ومنهم أيضًا أولوغ بك وطغر بك، وأورخان بك، وغازان، وأبو سعيد، وغيرهم.

(تقلا عن: عصر سلاطين المماليك، المجلد الثالث، ص ٧، ٨ بتصرف)

3- ينظر الكامل في التاريخ: ٤٢١/١٠.

وبعد جنكيز خان جاء حفيده هولاكو خان، فأبجه إلى الدولة العباسية ومقرها بغداد وذلك في سنة ٦٥٤هـ، وفي طريقه عرّج على قلعة الموت ففتحها، وأخذها منهم، وقتل من فيها ثم استولى على الرّي، ثم عرّج على مدينة بخارا، وكذلك مدينتي سمرقند وبلخ، فأحدث بها وبأهلها من الدمار والهلاك والخراب ما أحدث بغيرها، ثم قصد بغداد سنة ٦٥٦هـ، فمكّن له الوزير الشيعي ابن العلقمي^(١) وزير الخليفة العباسي المستعصم بالله^(٢) من دخول بغداد والاستيلاء عليها وزلزلة الأرض تحت أرجل الخليفة المستعصم^(٣) وذلك نظراً للخلاف الذي كان قائماً بينه وبين الخليفة، أو لنقل: الخلاف الكبير الذي كان قائماً آنذاك بين الشيعة وأهل السنة فلما استولى هولاكو على بغداد أباحها لجنده أربعين يوماً، وقتل منها، كما يقول بعض المؤرخين - ما يتقرب من مليوني مواطن، وخرّب عمراتها، ورعى كتبها في نهر دجلة^(٤).

وقد وصف سير توماس أرنولد ما قام به المغول من ضروب الوحشية في غزواتهم للبلاد الإسلامية بقوله: "لا يعرف الإسلام من بين ما نزل به من الخطوب والويلات خطباً أشد هولاً من غزوات المغول؛ فقد انسابت جيوش جنكيز خان انسياب الثلج من قنن الجبال، واكسحت في

1 - في قوات الوفيات فصل عن ابن العلقمي، ينظر في: ٢٥٢/٣ - ٢٥٥.

2 - ينظر ترجمته في البداية والنهاية: ١٣/٢٠٤ - ٢٠٦.

3 - ينظر المصدر السابق: ١٣/٢٠٠ - ٢٠١.

4 - ينظر ظهر الإسلام: ٤/١١٣، وكذلك: عصر سلاطين المالك المجلد الثالث، ص (٩).

طريقها الحواضر الإسلامية، وأتت على ما كان لها من مدينة وثقافة، ولم يتركوا وراءهم من تلك البلاد سوى خرائب وأطلال بالية، وكانت تقوم فيها قبل ذلك القصور الفخمة المحاطة بالحدائق العنّاء والمروج الخضراء، فبعد أن تحوّل جيش المغول عن مدينة هراة خرج أربعون من أهلها من محبتهم فراراً من الموت، وكان هؤلاء العساء هم البقية الباقية من سكانها الذين كان يربو عددهم على المائة ألف، ووقفوا مهطعين مُقْتَبِعِي رُؤُوسِهِمْ يَبْكُونَ أطلالَ مَدِينَتِهِمْ، وقد أخذ الحلع والفرعُ من نفوسهم كلَّ مأخذٍ⁽¹⁾.

والواقع أن غزو المغول للشرق الأدنى سنة ٦١٧ هـ هو أعظم كارثة حلت بالإنسانية. ويصف المؤرخ ابن الأثير هول تلك الكارثة بهذه الكلمات: "لقد بقيتُ عدّة سنين مُعْرِضًا عن ذكر هذه الحادثة استعظاً لما كارها لذكرها؛ فأنا أقدم رجلاً وأؤخرُ أخرى، ومن الذي يسهلُ عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، ومن الذي يهون عليه ذكرُ ذلك، فيا ليت أُمِّي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيّاً منسياً، إلا أنني حسّيتي جماعةً من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف، ثم رأيتُ أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً، فنقول: هذا الفصل يتضمّنُ ذِكْرَ الحادثة العظيمة والمصيبة الكبرى، التي عقت الأيام والليالي عن مثلها، عمّت الخلاق وخصّت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله - سبحانه وتعالى - آدم إلى الآن لم يتبلور بمثلها

1- تاريخ الإسلام السياسي ١٤٠/٣.

كان صادقاً؛ فإنّ التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها . . . وهؤلاء لم يُبقوا على أحد . بل قتلوا النساء والرجال والأطفال، وشقوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنّة، فإنّا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم؛ فهذه الحادثة استطار شررها وعمّ ضررها، وصارت في البلاد كالسحاب استد برثته الريح (1)

ب- الحالة الاقتصادية والاجتماعية في عصره:

قلنا إن هجوم التار على المجتمع الإسلامي كان هجوماً مُدمراً ومُحرِّباً اجتاح كل شيء أمامه من أخضر ويابس: خربوا الحضارات، وهدموا القصور والمنازل، وقشوا البيوت وأخذوا ما فيها من أموال وغيره، وشرّدوا أهلها، وأصبح المجتمع الإسلامي الخاضع لسيطرتهم يعاني من أزمات طاحنة، وتدبورت حالة أفراده الصّحية وغير الصّحية، وعمّ هذا المجتمع خرابٌ والدمارُ.

أمّا عن حال المجتمع الإسلامي في مصر وشبه الجزيرة العربية، ذلك المجتمع الجديد الذي وفد إليه علماء المشرق الفارّون من وجه التار، ذلك المجتمع الذي وقاه الله شرّ هجمات التار المخزيين، فكان الوضع فيه مختلفاً؛ حيث كان أكثر غنى وبراءً ولكنه كان مُقسماً إلى طبقات اتسعت الهوةُ بينها؛ فهناك طبقةُ رجال الدولة، وهي الطبقة المرفهة المنعمّة، وهي طبقة

1 - الكامل في التاريخ: ١٠٠/٣٩٩.

سلاطين المماليك والأمراء وأتباعهم من جند المماليك، وهناك طبقة التجار، ثم طبقة الباعة، ثم طبقة الفلاحين، ثم طبقة الفقراء، وهم جُلُّ الفقهاء وطلاب العلم، ثم طبقة الحرفيين والأجراء، ثم طبقة المسوّلين⁽¹⁾.

هذا وقد انتشر التصوف في المجتمع الإسلامي بعد سقوط بغداد وتعددت الطرق الصوفية، وانتشرت انتشاراً عريضاً، وتغلّقت في أوساط الشعب والخاصة على السواء، وتعددت أسماءها وأسماء رجالها وشيوخها، وشاعت فلسفة احتقار الدنيا في كتابات العلماء ورجال الدين والكتاب، ورجال الأدب.

والتصرف في صورته الاجتماعية مظهرٌ من مظاهر الانصراف عن الحياة الدنيا لبقاقتها وخسيتها، كما يقول تاج الدين السبكي المتوفى سنة ٧٧١هـ⁽²⁾. والإحساس بمقاراة الحياة الدنيا يتزايد في أوقات الشدة والضيق، ولاشك أن ما كان فيه العالم الإسلامي آنذاك هو أقصى درجات الشدة والضيق⁽³⁾.

ج- الحالة العلمية والفكرية والثقافية في عصره:

ظَلَّتْ بغدادُ رُهاءَ خمسةِ قرونٍ العاصمةَ الروحيةَ والفكريةَ للمسلمين قاطبةً ولكلِّ

1 - ينظر: إغاثة الأمة بكشف الغمة، لتقي الدين المقرئ، ص ٧٢.

2 - ينظر: معبد النعم وميد النقم، ص ٩٥.

3 - ينظر: الأدب في العصر المملوكي، ١٩٨/١، وينظر كذلك: ظهر الإسلام، ٢١٩/٤.

الناطقين بلغة الضادِ ، يَنْخُجُ إليها العلماء من أبناء الأوطان الأخرى يشهدون حلقاتها ودروسَ علمائها ومناظراتِ أدبائها ومحاوراتِ ظرفائها ، ومسابقاتِ شعرائها ومفآكهاثِ أئمةِ المجالس فيها وامتلأتِ مكاتبُها ودورُ كُتُبها بذخائرِ علميةٍ نقيسةٍ ، وأصبحت بغدادُ - بحق - دارةَ العلمِ وهالةَ الأدبِ - كما يقال - واستمرتُ على هذه الحالِ إلى أن وقعتِ فريسةً في يدِ التار في عام ٦٥٦ هـ - كما قلنا - ففرقوا أهلها وقتلوا علماءها وشرّدوا مَنْ نجا منهم من القتل ، وألقوا بكتيبها في نهرِ دجلة .

وعندما ألكسح التارُ الممالكَ الإسلامية خربوا الحضارات ، وهدموا العمارات ، وكانت هذه العمارات ثيجة حضارة قرون ، وكانت الكُتب التي ألقوا بها في نهرِ دجلة ثيجة ثقافة قرون والحضارات والعلوم إنما بُنيت على ما قبلها ، وتؤسسُ على ما سبقها ، وهي كالماء للنبات الغضِ فإذا حُرِمَ النباتُ الغضُ الماءُ ذبلَ وجفَّ بعد قليل ، وكذلك كان العلم والحضارةُ الإسلاميانِ ، هذا فضلاً عما أُصِيبَتْ به الثقافة من نكباتٍ للعلماء ، فإذا بقي شيءٌ من العلم فقليلٌ يكفي للتقليد ولا يبعث على التجديد (١) .

وبعد هذه الكارثة العظيمة التي حلتْ ببغدادِ وبِحارِها ونيسابورِ والرِّيِّ وسمرقندِ وبلخِ ، وغيرها من مدن العلم والأدب ، انتقل العلم وانتقلت مراكزه إلى القاهرة ، وأصبحت القاهرةُ

1 - ظهر الإسلام : ٤ / ١٩٣ .

خليفة بغداد، وعقد لها لواء الزعامة الفكرية والثقافية منذ منتصف القرن السابع الهجري، وتوافد عليها علماء المشرق والمغرب من أمثال ابن خلكان الإربلي، وابن مالك الأندلسي، وابن منظور الإفريقي، وابن خلدون المغربي، وغيرهم .

وقد شعر علماء ذلك العصر بنقص الكتب في أيامهم، فقال الإمام السيوطي في المزهري⁽¹⁾ - بعد ذكر حكاية الصاحب بن عباد، لما دعي للذهاب إلى بعض الملوك فاعتذر بمسقة الانتقال؛ لأنه يحتاج إلى ستين بعيراً ينقل عليها كتب اللغة التي كانت عنده: "وقد ذهب جُلُّ الكتب في الفتن الكائنة بين التتر وغيرهم؛ بحيث إن الكتب الموحودة الآن في اللغة من تصانيف المتقدمين والمتأخرين لا يجيء جمل جمل واحد".

وإذا كان السيوطي - رحمه الله - يبالغ في ذلك إلا أنه إن دلّ على شيء فإتّما يدلّ على مقدار قلق العلماء لضباغ الكتب بالفتن، ويدلّ أيضاً على كثرة الكتب التي ضاعت، سواء بالحرق أو بإلقائها في نهر دجلة .

وكان إحراق الكتب قد بدأ في المملكة الإسلامية قبل ذلك بسبب التنازع بين الفرق الإسلامية؛ فكلّ فرقة تحاول إحراق كتب الأخرى؛ كإحراق السلطان محمود الغزنوي لكتب المعتزلة . وناهيك عما أحرق من كتب العلماء المهتمين بالزندقة والفلسفة، وهي كثيرة، ولعل

بينها ما ليس مثله بين ما بقي - كما قال جرجي زيدان⁽¹⁾

أما التآر فبالغوا في الإحراق والتخريب؛ قال ابن تَعْرِي بِرْدِي: "وَحَرِّتْ بُغْدَادُ الْخَرَابَ الْعَظِيمَ، وَأُحْرِقَتْ كُتُبُ الْعِلْمِ الَّتِي كَانَتْ بِهَا فِي سَائِرِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الَّتِي مَا كَانَتْ فِي الدُّنْيَا، قِيلَ: إِنَّهُمْ بَنَوْا بِهَا حِيسْرًا مِنَ الطِّينِ وَالْمَاءِ عِوَضًا عَنِ الْأَجْرِ"⁽²⁾.

وإذا كان الغزو المغولي للشرق الأدنى قد نتج عنه ذلك الركود العلمي والأدبي، إلا أنه كان ركودًا مؤقتًا؛ حيث أخذ النشاط يدبُّ في هذين الميدانين، وذلك بعد أن استقرَّ المغول في البلاد التي فتحوها؛ ويرجع ذلك إلى أن بعض المؤلفات العلمية قد نجت من أيدي المغول، وبخاصة ما كان منها في المدن الجنوبية من البلاد الخوارزمية

ثم أخذ المغول يتقبلون آراء المسلمين وأفكارهم، ورغبوا تدريجيًا في اعتناق المدنية الإسلامية. ليس هذا فحسب، بل وجدنا الكثيرين من سلاطينهم قد اعتنقوا الإسلام، مثل أبغابك، وغازان، وأبي سعيد وغيرهم، وبرز كثير من العلماء والأدباء بفضل تشجيع المغول لهم، ومن أشهر هؤلاء في عهد هولاكو العلامة نصير الدين الطوسي - أستاذ ركن الدين الأستراباذي. وقد امتاز الطوسي بأبحاثه في علم الفلك فشجعه المغول وبنوا له مرصدًا عظيمًا في مدينة مراغة بأذربيجان، ومكتبة بجانبه يقال إنها كانت تحوي أربع مائة ألف من المجلدات.

1- ينظر: تاريخ آداب اللغة العربية ١١٣/٣.

2- النجوم الزاهرة: ٥١/٧.

وقد امتاز الطوسي أيضًا بمؤلفاته القيمة في الجبر والهندسة والطبيعة والحكمة والأخلاق والآلات الرصد، كما اشتهر بترجمة كثير من الكتب اليونانية في مختلف العلوم، وكان من أكبر المشتغلين بالعلوم العقلية بعد ابن سينا.

وقد حاول الطوسي جاهدًا أن ينقذ حياة أكبر عدد من العلماء وأن يحفظ أكبر عدد من الكتب الباقية، لذلك اتخذ من مرصد مراغة حجةً لجمع الجُم الغفير من العلماء وحماتهم من النقل، واستخلاص الكتب وحفظها والعناية بها، وكان من نتيجة ذلك أن انقلب الأمر وعاد المغول بعد ذلك مسلمين منافحين عن الإسلام.

وينبغي في هذا العصر علماء كثيرون من بينهم: ابن مالك (ت ٦٧٢هـ)، ومحي الدين النووي (ت ٦٧٦هـ)، ورضي الدين الأستراباذي (ت ٦٨٦هـ)، وجمال الدين بن منظور الإفريقي (ت ٧١١هـ)، وركن الدين الأستراباذي (ت ٧١٥هـ)، وابن آجروم الصنهاجي (ت ٧٢٣هـ)، وأبو حيان (ت ٧٤٥هـ)، وتقي الدين السبكي (ت ٧٥٦هـ)، وابن خلدون المغربي المتوفي سنة ٨١٨هـ، ومجد الدين الفيروزبادي المتوفي سنة ٨١٧هـ. وغيرهم.

وبالجملة يمكن القول بأنه بالرغم مما حلَّ بالأمصار الإسلامية من خراب ودمار على أيدي التار، فإنَّ سناد التعليم كان لا يزال قائمًا كما قال العلامة ابن خلدون - رحمه الله تعالى (١).

١ - ينظر: تاريخ ابن خلدون: ١/٣٦١.

د - الحياة الدينية في عصره:

كانت الحياة الدينية في بلاد المشرق العربي آنذاك أوفر حظاً من غيرها من الحيات؛ نظراً لأنّ المالِك كانوا يدينون بالدين الإسلامي، وكانوا يعرفون مدى تأثير الروح الدينية على الناس في الشرق العربي، فقد أرادوا أن يتخذوا من الدين دعامة قوية يشجبون عليها كل مساوئهم؛ فكانوا يبالغون في الظهور بالمظاهر الدينية؛ من بناء المساجد والزوايا، والاحتفال بالأعياد الدينية وإقامة الموالد والاهتمام ببناء الأضرحة للأولياء .

وكان العلماء النازحون من الأقطار الإسلامية يتفاعلون مع هذا الجو الديني ومع هذه الطبيعة الدينية، وبخاصة أن هؤلاء العلماء المضطهدين الفارين من وجه التار، والذين كانوا يدينون بالدين الإسلامي الحنيف، كانوا متمسكين غاية التمسك بأصول دينهم ومقررات شريعتهم الإسلامية الغراء، يدافعون عن الإسلام والمسلمين وخاصة في تلك الأوقات العصيبة التي يقفون فيها أمام أعدائهم ممن لا دين لهم ولا خلاق .

في ظلّ هذا الجو السياسي المائج بالفتن والاضطرابات، وفي ظلّ هذه الحياة الاجتماعية والاقتصادية القاسية . . . في ظلّ هذه البيئة العلمية الناضجة بالتنافس المزدهرة بالتأليف الحافلة بالموسوعات عاش عالمنا الكبير، ركن الدين الحسن بن أحمد الأسترباذي، وسنرى في السطور التالية - إن شاء الله تعالى - مدى التفاعل بينه وبين بيئته مؤثراً ومثراً .